(١٩)

وصية شيخ الصوفية الأصبهاني لأصحابه

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ((**وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني . شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده . قال: «أحببت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين. قال فيها: وأن الله استوى على عرشه بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه عز وجل بائن من خلقه، والخلق منه بائنون بلا حلول ولا ممازجة، ولا اختلاط ولا ملاصقة، لأنه المنفرد البائن من خلقه، الواحد الغني عن الخلق. وأن الله عز وجل سميع، بصير، عليم، خبير، يتكلم، ويرضى، ويسخط، ويضحك، ويعجب، ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكًا، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول: «هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ولا تشبيه، ولا تأويل، فمن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال، وسائر الصفوة من العارفين على هذا»**))

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ. فلا زال شيخ الإسلام يسرد منقولاته عن المتقدمين من مختلف أطباق الأئمة. وهاهنا ينقل عن إمام من الصالحين يقال له معمر بن أحمد الأصبهاني رحمه الله، ويوصف بأنه إمام الصوفية. وينبغي أن نعلم أن هذا المصطلح – مصطلح الصوفية – لا يعني الذم بإطلاق، إذ أن متقدميهم كانوا على السنة إلا أنهم مالوا ونزعوا للعبادة والنسك والرقائق والأخلاق والتهذيب أكثر من نزعتهم للعلم والآثار. ثم إنه جد فيهم بعد ذلك من البدع العملية والقولية ما ألحق كثيرًا من طرقهم بالمبتدعة. ثم إنه انحط ببعضهم الحال إلى دركات سحيقة وهم القائلون بوحدة الوجود والحلول كأمثال ابن الفارض وابن عربي. فهذا مصطلح حمال أوجه. فهذا هو سر وصف الشيخ له بأنه من الصوفية. إذ لم يكن هذا اللفظ مذمومًا بإطلاق. وقد نقل فيه من كلام معمر بن أحمد كلامًا حسنًا موافقًا لما عليه السلف من إثبات الصفات الذاتية وإثبات الصفات الخبرية وإثبات الصفات الفعلية كما تقدم، ولا حاجة لمزيد بيان.

((**وقال الشيخ الإمام أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال في كتاب «السنة» حدثنا أبو بكر الأثرم، حدثنا إبراهيم بن الحارث . يعني العبادي . حدثنا الليث بن يحيى، قال: سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر . وهو صاحب الفضيل . قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ليس لنا أن نتوهم في الله كيف هو؛ لأن الله تعالى وصف نفسه فأبلغ، فقال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [سورة الإخلاص] فلا صفة أبلغ مما وصف به نفسه. وكل هذا: النزول، والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع كما يشاء أن ينزل، وكما يشاء أن يباهي، وكما يشاء أن يضحك، وكما يشاء أن يطلع. فليس لنا أن نتوهَّم كيف وكيف. فإذا قال الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه. فقل: بل أؤمن برب يفعل ما يشاء». ونقل هذا عن الفضيل جماعة، منهم البخاري في «خلق أفعال العباد».**))

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ [1]

هذا النص عن الخلال رحمه الله، وهو إمام معروف نقل بإسناده عن الفضيل بن عياض رحمه الله معلوم معروف ومتقدم هذا الكلام الرصين، وهو في منع توهم شيء من صفات الرب سبحانه وتعالى بل نصفه بما وصف به نفسه في سورة الإخلاص ولا يسبق للذهن شيء مما يقع في نفوس الناس مما يعهدون فهو سبحانه واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. ثم عدد الصفات الفعلية التي يقع النزاع في مثلها كالنزول والضحك والمباهاة – يشير أن الله تعالى إذا نزل عشية عرفة يباهي بأهل الموقف ملائكته، والإطلاع كونه سبحانه يطلع على عباده. كل ذلك كما يشاء يعني على الكيف الذي يعلمه سبحانه. وفي هذا إثبات للكيف لكن على ما يشاء الرب سبحانه ويعلمه. ففرق بين إثبات الكيفية وإثبات التكييف. فوجود كيفية هذا أمر لا ريب فيه ونفيه تعطيل، أما حكاية التكييف فهو المحذور الذي لا يجوز أن يفوه به أحد. ولهذا مثل بمثل فقال ((**إذا قال الجهمي هو يكفر برب يزول عن مكانه فقل "بل أؤمن برب يفعل ما يشاء"**)). فالجهمي أراد أن ينفي صفة النزول بما سبق إلى الذهن من معنى النزول البشري وكونه يرتبط به زوال على ما تعهده الأذهان، فقابل ذلك بقوله بل أؤمن برب يفعل ما يشاء لأنه إذا نفى النزول وسائر الصفات الفعلية فقد نفى عن الله تعالى المشيئة، فلذلك قال بل قل أؤمن برب يفعل ما يشاء. فالله تعالى لم يزل فعالاً كما قال سبحانه {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧]فهو سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال ولن يزال سبحانه وبحمده موصوف بالفعل. فأصل الفعل ونوعه ذاتي قديم وأما آحاده وأفراده فإنها تتجدد بحسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته. وهذا هو المعنى الذي ضاق عنه عطن هؤلاء المتكلمين فلم يثبتوا لله صفات الفعلية حذرًا من أن يقتضي ذلك حدوثًا. والحدوث الذي فروا منه ليس هو الحدوث المذموم، لأن الحدوث المذموم أن يجد شيئا بعد أن لم يكن. فالله تعالى كامل في أسمائه وصفاته لا يطرأ عليه شيء بعد أن لم يكن، لكن نوع الفعل قديم وآحاده تتجدد كما نقول أيضًا في كلامه نوع الكلام قديم وآحاده وأفراده تتجد بحسب ما تقتضيه حكمته فهما من بابة واحدة.

((ونقله شيخ الإسلام بإسناده في كتابه «الفاروق» فقال: حدثني يحيي بن عمار، ثنا أبي ثنا يوسف بن يعقوب، ثنا حَرَميّ بن على البخاري، وهانئ بن النضر عن الفضيل.وقال عمرو بن عثمان المكي في كتابه الذي سماه «التعرف بأحوال العباد والمتعبدين» قال: « باب ما يجيء به الشيطان للتائبين» وذكر أنه يوقعهم في القنوط، ثم في الغرور وطول الأمل، ثم في التوحيد، فقال: من أعظم ما يوسوس في التوحيد بالتشكيك أو في صفات الرب بالتمثيل والتشبيه، أو بالجحد لها والتعطيل. فقال بعد ذكر حديث الوسوسة: واعلم . رحمك الله تعالى . أن كُلَّ ما توهمه قلبك، أو سَنَح في مجاري فكرك، أو خطر في معارضات قلبك من حسن أو بهاء، أو ضياء أو إشراق، أو جمال، أو سنح مسائل، أو شخص متمثل: فالله تعالى بغير ذلك، بل هو تعالى أعظم وأجل وأكبر، ألا تسمع إلى قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى:١١]، وقوله: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:٤] أي لا شبيه ولا نظير ولا مساوٍ ولا مثل، أَوَلَمْ تعلم أنه تعالى لما تجلَّى للجبل تدكدك لعظم هيبته، وشامخ سلطانه، فكما لا يتجلى لشيء إلا اندك، كذلك لا توهمه أحد إلا هلك، فرُدّ بما بين الله في كتابه من نفيه عن نفسه التشبيه والمثل والنظير والكفؤ.

فإن اعتصمت به وامتنعت منه أتاك من قبل التعطيل لصفات الرب تبارك وتعالى وتقدس في كتابه وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال لك: إذا كان موصوفًا بكذا أو وصفته، أوجب له التشبيه فأكذبه، لأنه اللعين إنما يريد أن يستزلك ويغويك ويدخلك في صفات الملحدين الزائغين الجاحدين لصفة الرب تعالى.

فاعلم رحمك الله تعالى أن الله واحد لا كالآحاد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ـ إلى أن قال .: خلصت له الأسماء السَّنِيَّة فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق، لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليًا، أو اسمًا كان منه بريًا تبارك وتعالى، فكان هاديًا سيهدي، وخالقًا سيخلق، ورازقًا سيرزق، وغافرًا سيغفر، وفاعلًا سيفعل، لم يحدث له الاستواء إلا وقد كان في صفة أنه سيكون ذلك الفعل فهو يسمى به في جملة فعله كذلك، قال الله تعالى: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر:٢٢] بمعنى أنه سيجي، فلم يستحدث الاسم بالمجيء، وتخلف الفعل لوقت المجيء، فهو جاء سيجيء، ويكون المجيء منه موجودًا بصفة لا تلحقه الكيفية ولا التشبيه، لأن ذلك فعل الربوبية، فيستحسر العقول وتنقطع النفس عن إرادة الدخول في تحصيل كيفية المعبود، فلا تذهب في أحد الجانبين لا معطلاً، ولا مشبهًا، وارضَ لله بما رضي به لنفسه، وقف عند خبره لنفسه مسلمًا، مستسلمًا، مصدقًا؛ بلا مباحثة التنفير ولا مناسبة التنقير.))

المقام كما هو واضح هنا أن عمرو عثمان المكي رحمه الله أراد أن ينفي الإنسان كل ما يخطر بباله من الصور المتخيلة مهما كان بهاؤها ونضارتها وجمالها وغير ذلك، فوضح أن كل ذلك منفي ولا يمكن أن يكون الله تعالى كذلك، "**كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك**".

هذا نص جميل من هذا الإمام عمرو بن عثمان المكي رحمه الله وهو يعالج مشكلة نفسية. وكأنما هو طبيب يتتبع مثالب الشكوك والنفوس. فإنه ذكر حديث الوسوسة وعلم أن الشيطان يتسلط على العباد والمؤمنين بأنواع الشبه والشكوك والتخييلات. فأراد أن يدحض هذا الذي يلقيه الشيطان في النفس وأن يبرئ العقل مما يعلق به من هذه التصورات والهيئات. فلذلك أكد على أن كل صورة مفترضة وكل مثل مهما كان حسنًا وجميلاً وبهيًا فالله تعالى ليس كذلك، وأنه سبحانه – وهذا تمثيل جميل – **كما أنه لما اطلع وتجلى للجبل اندك فإن عقلاً يستشرف ذلك لابد أن يهلك**. فالله ﷻ لا تحيط به العقول ولا تبلغه الأوهام سبحانه وبحمده. فكيفيته لا تدرك، كما قال مالك رحمه الله ليت شعري أي عقل يوزن به ما ينبغي للرب سبحانه يعني في حقيقته وكيفيته. وهو الذي قال الاستواء معلوم أي أن مراده أن المعنى مدرك معلوم. وأما الكيف فتحسر العقول عن دركه. ثم إن عمرو بن عثمان المكي رحمه الله لما بين هذا المقام بين أن الشيطان سيتسلل للنفس من باب آخر وهو أنه يقول إن هذا مادام ممتنعًا مستحيلاً لا سبيل إليه فإن ناتجه هو عدم إثبات ما أثبت الرب لنفسه، فيجره من الفرار من التمثيل على الوقوع في التعطيل وهذا ما وقع فيه كثير من النفاة، أنهم أرادوا الهروب من ورطة التمثيل فوقعوا في ورطة التعطيل فحذر من ذلك وبين أن هذا مسلك الزائغين. ثم بين أن الله ﷻ لا يقاس بخلقه ولا تضرب له الأمثال فقال أنه ﷻ واحد لا كالآحاد، فرد صمد، ويجوز أن يخبر عن الله أنه فرد، أما هذا اللفظ كونه اسمًا من الأسماء الحسنى ففيه نظر. فإن ممن كتبوا في الأسماء الحسنى أثبتوه اسمًا. وقد ورد حديث عند البيهقي "أشهد أنك فرد أحد صمد"، قال البيهقي في الأسماء والصفات " ليس بالقوي" . لكن يخبر به عن الله ﷻ لأن معناه صحيح. قال **خلصت له الأسماء السنية فكانت واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق** أي أنه يرد بذلك على الجهمية الذين يزعمون

أن أسماء الله حادثة وأن الخلق والعباد هم الذين أحدثوها ونسبوها إلى الله. فبين رحمه الله أنه ﷻ قديم بأسمائه وصفاته، وأنه ليس هذا من اصطناع الخلق بل هي واقعة في قديم الأزل بصدق الحقائق لم يستحدث تعالى صفة كان منها خليًا ولا اسمًا كان منه بريًا. ثم إنه سلك في حل معضلة الصفات الفعلية التي أعضلت على المتكلمين فنفوها عن الله ﷻ وأولوا وحرفوا كل وصف فعلي بمسلك غير الذي بيناه سابقًا، وهو أن ذلك باعتبار ما سيكون، وهو المسلك الذي سلكه الطحاوي في عقيدته. وقد مر بنا أنه ما استفاد اسم الخالق بكذا ولا الرازق بكذا، وإنما يعني هو اسم قديم باعتبار أنه سيخلق ويرزق ونحو ذلك. وهذا المسلك بينه بما ضرب من أمثلة. فهو خالق سيخلق ورازق سيرزق وغافر سيغفر. والجواب الثاني هو ما أسلفناه وهو أنه لم يزل فعالاً وهو أن جنس الفعل قديم وأن آحاده تتجدد. فأفعاله سبحانه أزلية لم يخل وقت من فعله. فهو لم يزل فعالاً سبحانه وبحمده كما لم يزل متكلمًا.

وكلامه رحمه الله الذي مضى والذي سيأتي يدلنا على تعظيم السلف لرب العالمين وامتلاء قلبهم غبطة بالعلم به وإجلاله سبحانه وتسبيحه وتنزيهه عما وصفه به المبطلون من أهل التمثيل أو من أهل التعطيل.

قال رحمه الله ((**إلى أن قال: فهو تبارك وتعالى القائل: {أَنَا اللَّهُ} [القصص:٣٠] لا الشجرة، الجائي قبل أن يكون جائيًا لا أمره المتجلي لأوليائه في الميعاد؛ فتبيَضُّ به وجوههم، وتَفْلُج به على الجاحدين حجتهم، المستوي على عرشه بعظمة جلاله فوق كل مكان تبارك وتعالى، الذى كلم موسى تكليمًا، وأراه من آياته، فسمع موسى كلام الله؛ لأنه قَرَّبَه نَجِيًّا، تقدس أن يكون كلامه مخلوقًا أو محدثًا أو مربوبًا، والوارث لخلقه، السميع لأصواتهم، الناظر بعينه إلى أجسادهم، يداه مبسوطتان، وهما غير نعمته خلق آدم ونفخ فيه من روحه . وهو أمره . تعالى وتقدس أن يحل بجسم، أو يمازج بجسم أو يلاصق به تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، الشائي له المشيئة، العالم له العلم، الباسط يديه بالرحمة، النازل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ليتقرب إليه خلقه بالعبادة، وليرغبوا إليه بالوسيلة، القريب في قربه من حبل الوريد، البعيد في علوه من كل مكان بعيد، ولا يشبه بالناس. إلى أن قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} القائل: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ • أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الملك:١٦.١٧] تعالى وتقدس أن يكون في الأرض كما في السماء جل عن ذلك علوًا كبيرًا**))

لله دره رحمه الله قد أتي على كل شيء حقق الإثبات ونزه الرب سبحانه ورد على أهل التأويل بقوله هو تبارك وتعالى القائل أنا الله. يشير بذلك إلى الدعوى العجيبة التي يدعيها المتكلمون حيث قالوا إن ما سمعه موسى من الشجرة {إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: ٣٠]ليس كلام الله وإنما هو حروف وأصوات خلقها الله في الشجرة فسمعها موسى. ووالله لو حلف حالف بين الركن والمقام أن هذا المعنى لم يدر بخلد أحد من الصحابة ما حنث. من أين لهم ذلك ؟! كيف يجرؤون على هذه الإطلاقات والمجازفات أن يقولوا في أمر فهمه كل عربي قح أن موسى أتى إلى الشجرة وسمع كلام الله تعالى منها، سمع الله يقول إنني أنا الله رب العالمين. يدر بخلد أحد من السامعين أن هذه طرق وأصوات خلقها الله في الشجرة لتحكي كلامه أو لتعبر عن كلامه ، بل المتكلم هو الله سبحانه وتعالى وقد سمع الله كلام موسى ولو كان موسى سمع كلام مخلوق ما استحق أن يكرم ويقال عنه الكليم. ألم يقل الله ﷻ {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} (البقرة ١٥٣) فجعل هذه منقبة. فلو كان سمع

كلامًا مخلوقًا ما كان ثم فرق بينه وبين غيره. الجائي قبل أن يكون جائيًا يجيء أمره يشير لمن حرف قوله تعالى {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: ٢٢]إلى أن معناها إلى أن جاء أمر ربك. فهو سبحانه جائي فمن صفته المجيء قبل أن يجيء يوم القيامة هذا وصف له سبحانه وتعالى. المتجلي لأوليائه في المعاد. والتجلي فعل يفعله الرب ﷻ فينتج عنه بياض وجوههم. إلى أن قال ما قال أيضًا في الصفات الخبرية ففسر اليدين بأنهما على الحقيقة. قال **وهما غير نعمته** ردًا على من زعم أن اليد هي النعمة. إلى غير ذلك. وقوله **الشائي والنازل والباسط** ونحوها من الألفاظ هذا يسوغ الإخبار به عن الله، فإن باب الصفات أوسع من باب الأسماء. فقد قال النبي ﷺ "اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم". مع أنه ليس من أسمائه المنزل ولا المجري ولا الهازم، لكن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء. فيخبر عنه تعالى كل خبر لا يتضمن نقص. أما الأسماء الحسنى فإنها كما ذكر الله حسنى بلغت في الحسن غايتها. فهي تدل على حسن مطلق بوضعها وذاتها.

هذا وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.